جورج حبش.. حي في ذاكرتنا

مهند عبد الحميد

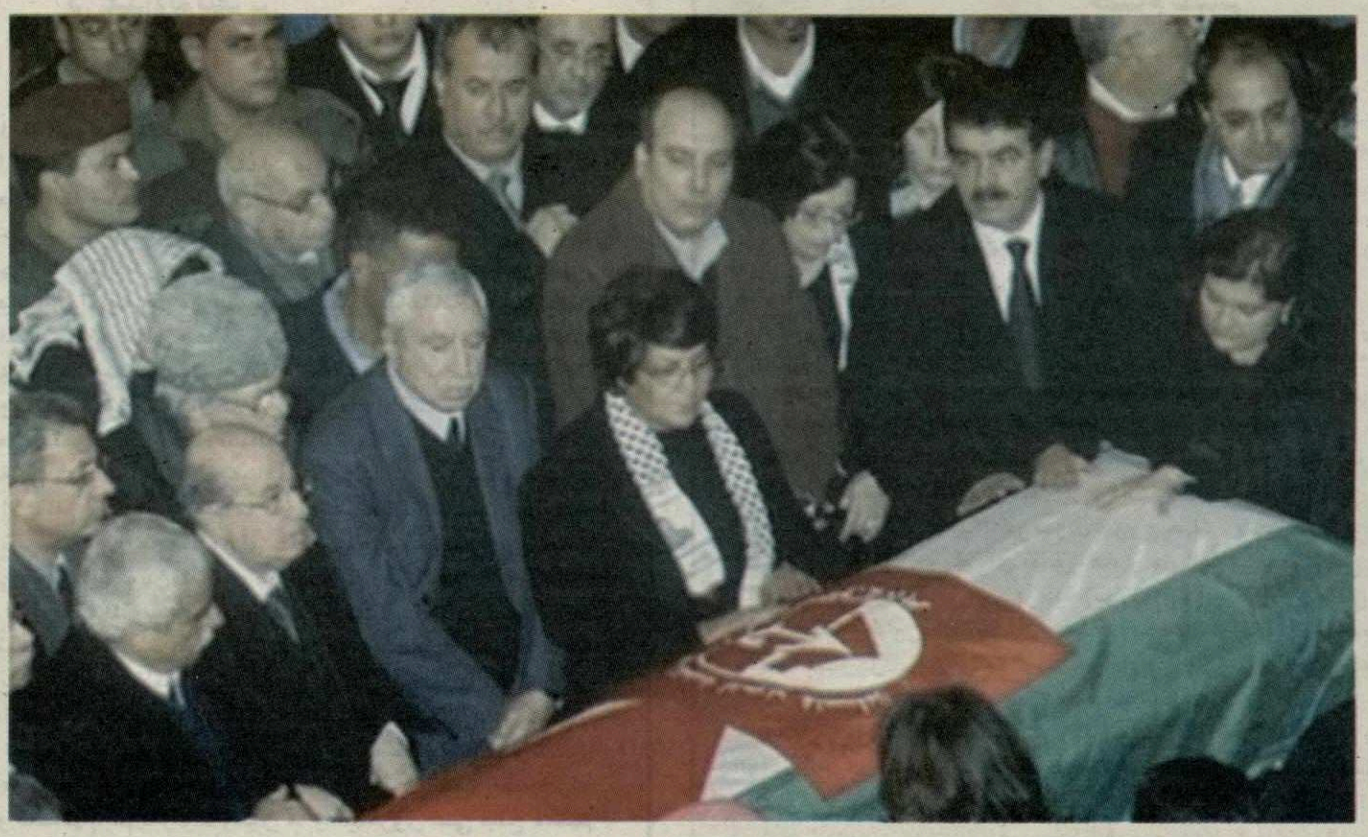

كتبتُ مادةً بعنوان "الحكيم رمز ومدرسة" لصحيفة "صوت النساء" تعرّضت فيها إلى مواقف إنسانية وفكرية في تجربة الراحل الكبير. صبيحة اليوم التالي تساءل زميلي المختص بالقصة الصحافية بسام الكعبي، بعد قراءته المادة: لماذا اخترت الكتابة التقليدية؟. قلت: ما يهم في الكتابة هو الملامسة العميقة وطرح الأسئلة الإشكالية؟. رد علي: كثيرون سيتحدثون عن فكر ومواقف الفقيد، لماذا لا تأخذ بعداً آخر وخاصة في لحظة الفقد. اقتنعت بالفكرة التي تعزّزت عندما قالت لي زميلة أخرى: لماذا لم تكتب عن قصص عايشتها مع الحكيم؟ اندفعت بعد هذه الملاحظات لتجاوز الشكل التقليدي ومحاولة التعبير بأسلوب آخر. بدأت أقدح ذاكرتي مفتشاً عن الجانب الإنساني في التجربة عبر قصص حدثت وكنت شاهداً عليها. "الجاكيت الجلدي الأسود الذي ترتديه جميلٌ جداً يا رفيق" قال المقاتل للحكيم أثناء زيارته إحدى القواعد. نظر الحكيم مبتسماً وقال: "بعرف، لا يوجد عندي غيره وهذه المرة مش راح أهديه لأحد". في مرات سابقة عندما كان الرفيق أو الرفيقة يبدي إعجابه بجاكيت الحكيم الجلدي، كان يخلعه على الفور ويقدمه كهدية. حدث ذلك ثلاث مرات، وبعد أن انتشرت الأخبار زاد عدد المعجبين بجاكيت الحكيم في مواسم الشتاء، ولم يعد في الإمكان مادياً وعملياً تكرار الهدية! احتفظ الحكيم بجاكيته هذه المرة وعقّب مازحاً: نريد زيادة العضوية على أساس البرنامج والفكر وليس على أساس آخر!!. كان مخيم تل الزعتر تحت الحصار المحكم من كل الجهات ويتعرض لقصف تدميري، خرج الحكيم في جولة تفقدية لمواقع المقاتلين في الجبل، سمع آراء من رغبوا بالحديث، كان يعرفهم ويسميهم بأسمائهم، وحاول تشجيع من لم يتحدثوا ولا يعرفهم، لفت نظره وجود رفيقة لم يشاهدها من قبل وفوجئ بأنها زوجة رفيق لم يمض على زواجهما أسبوعان، اندهش، وسأل: من الذي أتى بكما في شهر العسل؟ سارع الرفيق إلى القول: جئنا ندافع عن المخيم. بدأ يتحدث للمجموعات المقاتلة التي تحاول دخول المخيم وإدخال ما تيسّر من مواد طبية وتموينية. المجموعة التي تسللت في الليلة الماضية لم تعد حتى اللحظة، قال مسؤول الموقع، وقد انعكس ذلك على عمل مجموعات الحماية التي تقصف أجزاءً من محيط المخيم لتعيق تقدم القوات المهاجمة. تحدث طويلاً حول أهمية إنقاذ أبناء المخيم الأبرياء، وأضاف: كل واحد فينا يتخيل أنه داخل مخيم يتعرض للدمار كل واحد فينا مسؤول عن حياتهم. تحدث المقاتلون بحمية وطالبوا بوضع خطة للاقتحام وإنقاذ المخيم. رد عليهم بالقول: لا نريد المزيد من الخسائر في صفوفكم وصفوفهم، نريد إنقاذهم وحمايتهم، لا بد من دراسة رد مشترك مع رفاقنا وإخواننا في القوات المشتركة اللبنانية الفلسطينية. أنهى اللقاء متوقفاً عند العروسين الرفيقين، شد على يديهما متمنياً لهما السلامة لقضاء شهر عسل آخر. قال قائد سيارة الحماية: يوجد قنص في الطريق (إلى الموقع القريب من البقاع الذي يود الحكيم زيارته) الدبابات اقتربت من الموقع والحركة محفوفة بالخطر، هذا ما أبلغنا به الرفاق في الموقع عبر الجهاز، وهذا ما قاله السائقون الذين توقفوا عن الذهاب. استشعر المرافقون الخطر فأرسلوا سيارة للاستطلاع سرعان ما عادت بعد تعرضها للقنص. رغم ذلك قرر الحكيم الذهاب للموقع وقال مازحاً "أكيد مش راح يصيبونا" !! عند وصول السيارة الأولى تعرضت لإطلاق النار وفي هذه اللحظة تولى مسؤول الحراسة الشأن فأصدر أوامره بالضد من رغبة الحكيم أو هكذا بدا الموقف، وأقفل الموكب عائداً لتسود لحظات من الصمت قبل أن يبددها رهان الحكيم الساخر القائل بأن "الجنود لا يصيبون الهدف" !!. أنهت مجموعات من الطلبة الآتين من دول عربية وأوروبية ومن الأميركيتين معسكراً تدريبياً، وكان الختام لقاء مفتوح مع الحكيم. تحدث الحكيم وبعد ذلك أخذ يستمع للآراء خلافاً لتقليده المتبع مع المقاتلين. بعض الأسئلة كان نقدياً فوق العادة، وبعضها كان جارحاً، والبعض الآخر عبر عن فخره واعتزازه بمواقف الجبهة الشعبية. بدأ الحكيم الإجابة بالقول: أولاً، أشكر الذين نقدوا رغم أنهم مدوا الأمور إلى نهاياتها، وأضاف، صحيح أن النقد يستفز لكنه يفرض علينا مراجعة المواقف ومعرفة أين أخطأنا وأين أصبنا. أريد أن أكون صريحاً معكم، (قالها بنبرة واثقة لا تخلو من عتب): من كان يعتقد بأنه في تنظيم لا يخطئ فهو مخطئ، ومن يرغب في الانتماء إلى تنظيم منزّه عن الخطأ فليسمح لنا بالقول: لانستطيع تلبية رغبتك لأننا تنظيم يخطئ. وتساءل: أتعرفون لماذا نخطئ؟ ثم أجاب بعد هنيهة صمت: لأنكم لا تشاركوننا العمل في مختلف المجالات بصفتكم فئة مثقفة متعلمة، أنتم تنتقدون من بعيد، من خارج العملية وهذا حقكم، ولكن إذا أردنا الاستجابة للنقد فنحن نحتاج لجهود إضافية وربما نوعية. لماذا لا ينخرط البعض في العملية التنظيمية والنضالية؟، ولماذا لا تقدمون أفكاركم بصيغة مقترحات وبرامج حتى لو كان ذلك من بعيد؟ ... كم واحد منكم بادر إلى ذلك. انتقل الطلبة الى مواقع الدفاع وشرعوا بنقد أحوالهم. ما هي علاقتكم بالقوى الثورية في البلد الذي تعملون به؟ السؤال الأول الذي كان يطرحه بنوع من الاهتمام المركز لمسؤولي الساحات والمواقع. كان يربط نهوض القوى الديمقراطية والثورية في هذا البلد أو ذاك بتطور المقاومة وأشكال العمل الجماهيري الفلسطيني. ولا يكتفي بالسؤال بل كان حريصاً على إقامة علاقات تحالف مع تلك القوى، ولم يتوان عن تقديم الدعم المطلوب. في لقائه مع قوى ثورية مصرية قبل اتفاقية كامب ديفيد، انصب اهتمامه على الجانب الفكري والنظري وأكد حاجة الجبهة للتطوّر بمساعدة حلفائها المتقدمين فكرياً والذين حققوا تطوراً على هذا الصعيد، وقال: إنه سيعرض على المكتب السياسي مشروع دعم طباعة مجلات وكتب ـ صدر قرار بالدعم لاحقاً ـ ولقاءات لنقاش القضايا الشائكة وتبادل الأفكار والمقترحات. القضية الثانية التي طرحها بصيغة سؤال: لماذا لا تطلقوا مقاومة مسلحة ضد الاحتلال الإسرائيلي في سيناء؟ حتى وإن كان ذلك بصورة رمزية ودعائية. وفي لقائه مع قوى سورية ثورية طرح القضايا نفسها إلى حد كبير وشدد على سؤال: لماذا لا تفكرون بالمقاومة في الجولان المحتل؟ ونحن مستعدون لدعمكم.

الحكيم رمز ومدرسة

توقف القلب الكبير عن الخفقان' جورج حبش ضمير ثورة والضمير يبقى حيا.ماثرته الابرز الدفيء الانساني والعاطفة الصادقة ، كان المقاتلون يشعرون بالأمان، بحب واحتضان ابوي من طراز لم يعتادوا عليه. الحكيم يتوحد بالمناضلين والمناضلات بعد إزالته الحواجز عبر حوار مفتوح يسمع فيه كثيرا ويتفوه بالقليل. وفقا لذلك، أنت تذهب عبره الى ثورة من موقع ثقة واطمئنان فتزداد وطنية وثورية. في مجتمعنا كما في المجتمعات الاخرى صورة القائد تترك بصماتها على الجميع. نزاهة تواضع أمانة أخلاق، صفات أصيلة حقا صنعت مصداقية الحكيم وأضحت جزءا من مدرسته الفكرية وشخصيته المميزة. اندفاعة الحكيم الثورية بدأت مع الفكر القومي الذي احتل مركز الصدارة آنذاك، كان الثابت لديه هو الثورية والمتحرك هو الفكر، صعد نحو القومية بنسختها الناصرية، وتقدم نحو اليسار المقاوم بعد هزيمة المشروع القومي، غادر القومية دون طلاق واقترب من فكر الوطنية الفلسطينية بهويته اليسارية الجديدة. انجذب يساريون عرب بالمئات الى اليسار المقاتل فاعطوه قوة وزخما بأفكارهم وحواراتهم ، فأعلوا من شأن النقد وساهموا في اسناد الجانب التنويري الحداثي ضمن هذه التجربة الثورية. لكن انفصالهم عن مجتمعاتهم بدون الاندماج في المجتمع الفلسطيني، وضعف بنية اليسار الجديد الفكرية والتنظيمية أعادتهم من حيث أتوا، ذهبوا ليصنعوا يسارهم الجديد على أرضهم ومن داخل بلدانهم، ثم عادوا لينسجوا علاقة جديدة مع اليسار الفلسطيني عبر بوابة الحكيم ا الذي احتضنهم بالدعم والرعاية الرفاقية.، وحاول ان يؤسس محورا جذريا ثوريا معهم. تجربة الحكيم كانت محط اهتمام منظمات ثورية يسارية عالمية، لكن تلك العلاقة سرعان ما تلاشت بفعل التحالف مع معسكر الدول الاشتراكية وحركات التحرر الدائرة في فلكها. العنصر الاهم في فكر الحكيم تبنيه لقضية المرأة بما هي قضية تحررية. التحرر الوطني ارتبط عنده بالتحرر المجتمعي ومساواة المرأة بالرجل. كان اقتناعه بقضية المرأة عميقا، فحرص على نصوص برنامجية غير ملتبسة في شأن حرية المرأة وحقوقها، وأقرّن النص بمسعى دؤوب في الجانب التطبيقي. وحرص على استقطاب وإشراك وتمثيل النساء والفتيات في كل قضية ومعركة ومفصل. والتجسيد الاهم في فكر جورج حبش هو الوحدة الوطنية ' جسد وحدة اسلامية مسيحية نموذجية في إطار التنظيم والحركة الوطنية والمجتمع داخل وخارج الوطن. ولعب دور صمام الامان للوحدة الوطنية في إطار المنظمة والثورة، صحيح انه اقترب من أنظمة في إطار تحافه السياسي لكنه سرعان ما كان يبتعد عن الانظمة في لحظة تهديدها للوحدة الوطنية، وابتعد عن المنظمة في إطار اختلافه السياسي معها لكنه سرعان ما يقترب ويعود الى البيت، كان يفعل ذلك في الوقت المناسب لان بوصلته فلسطين ولا بوصلة لديه غير فلسطين . وجسد الديمقراطية بالنقد الذاتي ونقد الاخر بشجاعة وثقة، بابتعاده الطوعي المبادر عن الامانة العامة للتنظيم فاتحا المجال لكفاءات أخرى، كان يستطيع البقاء حتى اللحظة الاخيرة لكنه احترم الديمقراطية وجسدها من موقع الاقتدار وقدم نموذجا رائعا ومميزا. جورج حبش مدرسة علمتنا الكثير انه ضميرنا الاخلاقي الحي والنجم الذي يضيء المسيرة الطويلة حتى نهاياتها الظافرة.

mohanned__t@yahoo.com